البيروني* والكتابة التاريخية
(مقاربة في خصوصيات المنهج)
El-Biruni and historical writing

د. حمادي السايح†
شعبة الفلسفة . جامعة عبد الحميد بن باديس، مستغانم، الجزائر

تاريخ الإرسال: 2018/06/15تاريخ القبول: 2019/04/11 تاريخ النشر: 2019/05/12

الملخص:
حين يتعلق الأمر بمفكر صُنِّف بشهادة المستشرق الألماني(ساخاو) بأعظم عقلية عرفها التاريخ، لن تكون هناك مغالاة إذا قلنا عليه (أي البيروني) بأنه أَسَّس لثقافة منهجية جديدة في حقل الكتابة التاريخية العربية الإسلامية. فهو لم يحاول تحديد مناهجه فقط في مقدمات كتبه ولكنه يوضح أيضا ما تَفرَّد به بصدد أفعال العقل(أي المنهج)، الذي يُظهر حذرا فيه، ومتيقنا من الغرض منه، "لا يليق بطريقتنا التي سلكناها أن نضيف الشك إلى اليقين والمجهول إلى المعلوم. جاء في مقدمة كتاب(القانون المسعودي) "ولم أسلك فيه مسلك من تقدمني من أفاضل المجتهدين. "لقد أعيتني المداخل فيه(أي ما توصل إليه)مع حرصي الذي تفردت به في أيامي.
الكلمات المفتاحية:الكتابة التاريخية؛ التاريخ؛ الحقيقة التاريخية؛ المنهج؛ الشك المنهجي؛ الاستلال المنطقي؛ التجربة المعيشية؛ اللغة.

Résumé:
Lorsqu'il s'agit d'un penseur classifié, selon un témoignage d'orientaliste allemand, nommé, *SACHAU(Karl Eduard)* en tant que grand penseur que l'histoire ait connu, on n'exagérait guère si on dira qu'il *(Al-Bīrūnī)* a bien établi les fondements d'une nouvelle culture méthodologique aux champs de la culture historique arabo-musulmane. *Al-Bīrūnī* n'a pas, seulement, essayé de déterminer ses méthodes à travers les différentes introductions de ses œuvres mais il explique, aussi, dont il est seul envers les

†*Email :sayehham@yahoo.fr*

actes de la raison (la méthode), avec toute prudence ainsi qu'une assurance vers ses visées. « Il n'est pas convenable d'ajouter, d'après nôtre méthode suivi, le doute à la conviction ni l'inconnu au connu. (Paru à l'introduction de : *Al-Qanunu'l-Mas'udi (Canon Masudicus)*). Et j'ai pas suivi le parcours de ceux qui m'ont précédé parmi les meilleurs studieux. Les introductions de cette œuvre m'épuisaient (c'est-à-dire ce que j'ai atteint) surtout avec toutes mes attentions dont je me suis distingué pendant toute ma vie.

***Keywords*:**Historical writing; history; historical truth; methodology; methodological uncertainty; reasoning; living experience; language.

البيروني ومفهوم التاريخ:

جاء في كتاب (الآثار الباقية عن القرون الخالية) بصددموضوع التاريخ ومفهومه ما يلي: "والتاريخ مدة معلومة تعد من لدن أول سنة ماضية كان فيها مبعث نبي بآيات وبرهان أو قيام ملك مسلط عظيم الشأن أو هلاك أمة بطوفان عام..أو انتقال دولة أو تبدل ملة أو حادثة عظيمة من الآيات السماوية والعلامات المشهورة التي لا تحدث إلا في دهور متطاولة وأزمنة متراخية تعرف بها الأوقات المحددة فلا غنى عنها في جميع الأحوال الدنيوية والدينية.." [1]. لكن كيف السبيل إلى فهم هذا الماضي؟

حين نفتش في المنهجية التي حكمت الكتابة التاريخية قبل البيروني عند الكثير من المؤرخين ك(ابن قتيبة الدينوري ت 270ه) و(البلاذري ت 279ه) و(أبو حنيفة الدينوري ت 282ه) و(اليعقوبي ت 270ه) و(الطبري ت 310ه)نجدها ارتبطت بالطريقة التي اعتمدها المحدَّثون التي تتأسس بشكل جوهري على الرواية والمعروفة بدراسة الرجال أو نقد السند(الجرح والتعديل)، فهل البيروني سلك نفس المسلك؟

أهمية المنهج عند البيروني:

قبل الحديث عن المنهج وأهميته عند البيروني لابد من التنويه بأن فكرة المنهج بالمعنى الاصطلاحي المستعمل اليوم، تبلورت وأخذت شكلها النهائي والعلمي في العصر الحديث. "المنهج هو الطريق المؤدي إلى الكشف عن الحقيقة في العلوم بواسطة طائفة من القواعد العامة تهيمن على سير العقل وتحدد عملياته حتى يصل إلى نتيجة معلومة"[2].

صحيح أن البيروني لم يستخدم كلمة(منهج) لكنه من الواضح أنه يتحدث عن المنهج بالذات كما تم الحديث عنه في عصر النهضة الفكرية في أوربا أو في العصر الحديث.نقف على ذلك من خلال مقدمات كتبه التي أعارها عناية خاصة سيما ما يرتبط بتحديد "أفعال العقل التي تستطيع العلم والاكتشاف" [3]، أي المنهج.
فها هو في مقدمة كتابه(الآثار الباقية) يستخدم تارة تعبير الأصل الذي أصلته وتارة أخرى تعبير سبيل،"على أن الأصل الذي أصلته والطريق الذي مهدته ليس بقريب المأخذ"[4]، "فإن الذي ذكرته أولى سبيل يسلك بأن يؤدي إلى حاق المقصود وأقوى معين على إزالة ما يشوبه من شوائب الشبه والشكوك وبغير ذلك لا يتأتى لنا نيل المطلوب ولو بعد العناء الشديد والجهد الجهيد"[5].
بهذا يمكن القول بأن البيروني قد اعتبر وجود منهج قبل القيام بأية عملية بحثية تعتبر سمة أساسية في كل تفكير علمي. إنه حرص يكون (أبو الريحان) قد تَفرَّد به على الأقل في عصره.

البيروني والتفرد المنهجي:

لم يحاول البيروني تحديد مناهجه فقط في مقدمات كتبه ولكنه يوضح أيضا ما تفرد به بصدد أفعال العقل(أي المنهج)، الذي يُظهر حذرا فيه ومتيقنا من الغرض منه "لا يليق بطريقتنا التي سلكناها أن نضيف الشك إلى اليقين والمجهول إلى المعلوم" [6].جاء في مقدمة كتاب(القانون المسعودي) * "ولم أسلك فيه مسلك من تقدمني من أفاضل المجتهدين" [7]. "لقد أعيتني المداخل فيه(أي ما توصل إليه)مع حرصي الذي تفردت به في أيامي" [8]. هذا يعني أنَّ البيروني بإقراره هذا يكون قد اطلع على مجمل المناهج المستخدمة في الكتابة التاريخية قبله.
إن هذا التفرد هو الذي أهَّله (أي البيروني) طَرْق باب التنظير المنهجي على ما يقول(محمود إسماعيل)،ذلك أنه تناول الحوادث التاريخية بطريقة عَوَّلَت على العقل النقدي الذي يعتمد الاستدلال بالقياس في الاستنباط، والتجربة المعيشية كوسيلة للمشاهدة والدراسة في الاستقراء، فقد حاول في"كل كتاباته الاعتماد على النقد والتمحيص الذي يقيم الدليل على أهمية العقل..في كل تفكير علمي بناء، من جهة،وإلى المشاهدة واستقراء القوانين العامة بعد ترتيبها من جهة

أخرى"[9].دون أن ننسى منطلقاته الشكية التي تُمثل إحدى الركائز الأساسية لكل منهج علمي يتوخى سبر أغوار الحقيقة.

البيروني والشك المنهجي:

ينطلق البيروني في تقييمه التحليلي للمعلومات ومصادر معطياته من الشك المنهجي الذي يفرضهصاحبه بإرادته ورغبة منه في امتحان معلوماته واختبار كل ما يتعلق بصفة خاصة بالكتب التاريخية أوما يتعلق بنتائج الدراسات والتجارب في مجال العلوم الطبيعية . إن الشك عند البيروني ليس موقفا سلبيا متعمدا تجاه الآخرين،وليس مجرد عملية رفض لمن سبقهفي ميادين البحث،بل هو الخطوة الأولى التي يخطوها الباحث نحو الحقيقة. فهو لم يسرد التواريخ والأعياد دون رويَّة أو تفكير بل نجده يناقش أصولها وأسباب الخلاف فيها. وعليه نقول أن انجلاء المواقف والوقوف على صحتها مشروط بما تطرحه الذات منشكوك، إذ أول خطوة نحو اليقين هي "إزالة ما يشوبه من شوائب الشبه والشكوك وبغير ذلك لا يتأتى لنا نيل المطلوب ولو بعد العناء الشديد والجهد الجهيد" [10]. فعندما تُزال الشكوك يحصل العلم ويُسْتأصل الجهل ويحل اليقين محل الشك، حينذاك يحصل الارتياح "فلا راحة لشاك"[11].

هذا الأمر يذكرنا بما ذهب إليه(أرسطو) حينما اعتبر الشك الذي يقوم على التروي والتبصر وسيلة المعرفة التي تكون أدنى إلى الصواب، ذلك حسبه أن "الذين يقومون ببحث علمي من غير أن يسبقوه بشك يزاولونه، يُشْبِهون الذين يسيرون على غير هدى فلا يعرفون الاتجاه الذي ينبغي أن يسلكوه" [12]. دون أن ننسى(سقراط)الذي يعد القدوة الكبرى في هذا المجال. فهو لم يدع رأيا شائعا أو حكما سابقا أو تصورا مستقرا بين الناس إلا ووضعه موضع شك ليخضعه فيما بعد إلى امتحان عقلي دقيق. فقد كان "يبدو مع محدثيه وكأنه يتعلم منهم فيسلم بأقوالهم مصطنعا الجهل، ثم يأخذ في الاستفسار والتساؤُل وإثارة الشكوك في صحة ما يقولون، ويمضي في أسئلته مستنبطا من أقوالهم أفكارا لا تروقهم فيبدو بهذا تناقضهم، وهكذا ينتهي إلى تحرير العقل من الأخطاء" [13]. دون أن ننسى في الأخير ما ذهب إليه الفيلسوف الفرنسي(ديكارت 1596-1650م) الذي أسس منهجه على قواعد أربعة وجد فيها الكفاية التامة في عصمة العقل عن الخطأ في التفكير وفي تامين وصوله إلى الحقيقة، نكتفي بذكر الأولى منها "أن لا

أقبل شيئا على أنه حق ما لم أعرف أنه كذلك، بمعنى أن أتجنب بعناية التهور والسبق إلى الحكم قبل النظر، وأن لا أُدْخل في أحكامي إلا ما يَتمثَّل أمام عقلي في جلاء وتميز بحيث لا يكون لدي أي مجال لوضعه موضع الشك" [14].

من جهة أخرى نجد (البيروني)من منطلق الشك دائما يدعو إلى التريث في قبول الأخبار المنقولة، خاصة تلك التي مضى على وقوعها فترة طويلة من الزمن، والأخذ بما هو مقبول ومعقول، بعد أن يعرض كل شيء على العقل، فما قبله قُبِل وما رفضه رُفِض. ولكن دوما بالرجوع إلى الحجة والبرهان "إن البرهان من القضية قائم مقام الروح من الجسد، وبمجموع النوعين يحصل العلم بالاستيعان لاقتران الحجة به والتبيان، كما يقوم بمجموع النفس والبدن شخص الإنسان كاملا للعيان والله عز وجل استوفق لِما عزمت عليه" [15].

بالمختصر نقول: لم تخطئ (M.PATRICK)، حين"اعتبرت الشك البيروني قوة موقضة في تاريخ النشاطالعقلي، وأرجعت إليه كل نزوع إلى النقد الصحيح وحرية البحث، وأن النهضات العقلية ليست إلا أثرا من آثاره وصدى لروحه الوثاب، إذ لو تلقى الناس معرفتهم عن الغير أو استقوها عن تجاربهم من غير شك فيها ما ازدهرت الحياة العقلية واستقامت النهضات الفكرية" [16]. لكن هل يكتفي البيروني بالشك في تحريه عن الحقيقة؟.

الاستدلال المنطقي:

لن نخوض في تعريفات المنطق المتعددة الاتجاهات، ولكن يمكن الاستئناس ببعضها خدمةلما يطلبه عنصر البحث.

ينظر(البيروني) إلى المنطق على أنه وسيلة ضرورية يجب أن يحيها الإنسان، قاصدا من ورائها تقويم اللسان وإفصاح البيان "وإذا كان الإنسان ناطقا، ومع مخالفيه في أمور الدنيا والآخرة مجادلا خصيما، احتاج إلى ميزان لكلامه، وإذا كان الكلام في ذاته محتملا للصدق والكذب، والقياس المركب منه في الجدال معرضا للمغالطة المضلة والصحة المبينة، حتى يعيره ويصححه بطرقه عند الاشتباه، فاستخرجه وهو المسمى منطقا.. وأعجب بمن يكرهه ويَسِمُه بالسمات العجيبة إذا عجز عنه" [17].

وعند(الفارابي 339/260هـ)الملقب بالمعلم الثاني الذي لا يخلو تعريفه للمنطق بكل تأكيد من المضمون الأرسطي يمثل "الصناعة التي تعطي بالجملة،

القوانين التي شأنها أن تُقوِّم العقل، وتسدد الإنسان، نحو طريق الصواب، ونحو الحق في كل ما يمكن أن يغلط فيه من المعقولات.." [18]. أما عند(ابن سينا428/370هـ) فنجد عنده تعريفا هو الآخر مصبوغ بالصبغة الأرسطية حيث يعتبر المنطق "الصناعة النظرية التي تعرفنا من أي الصور والمواد يكون الحد الصحيح الذي يسمى بالحقيقة حدا والقياس الصحيح الذي يسمى بالحقيقة برهانا"[19].

وعموما نجد أساس هذه التعريفات وغيرها عند اليونانيين، وبخاصة(أفلاطون 427ق. م/348ق. م) الذي نظر إليه أي(المنطق)على أنه"وسيلة فهم الحقيقة" [20]. دون أن ننسى الفيلسوف اليوناني (أرسطو 384ق. م/ 322ق. م)الذي يعود إليه الفضل في وضع قواعده وإرساء أسسه، واعتباره آلة العلم، فهو بذلك "خير أداة لتحصيل المعرفة السليمة وفضح الأباطيل المضللة" [21]. باختصار يمكن أن نعرف المنطق بأنه "دراسة الاستدلال"[22].

على كل وبغض النظر عن أنواع الاستدلال (مباشر وغير مباشر)، فما يهمنا هو استخدام البيروني لهذهالوسيلة التي تحاول دراسة الأسباب والوقوف عليها بغية تبديد كل غموض يكتنف الحقيقة سيما التاريخية منها. والمثال التالي كفيل بتوضيح ذلك، فمن الأخبار التي لا تنسجم مع المعقول بالقياس والتي تدعو للعجب ما يرويه(أي البيروني) عن (الجيهاني، عاش في القرن العاشر الميلادي) في كتاب (المسالك والممالك) "من أمر الاسطُوانتين اللتين في الجامع بقيروان ولا يدري جوهرهما ما هو، فزعم أنهما ترشحان ماء كل يوم جمعة قبل طلوع الشمس"[23]، يعلق البيروني عن ذلك "موضع العجب من كونه يوم الجمعة فلو قيل يومُ من الأسبوع مطلقا يُحمل على بلوغ القمر موضعا من الشمس مفروضا وما يشبه ذلك ولكن يوم الجمعة مشترط لا يَحْتَمِلَ ذلك" [24]. لكن ما الذي يدعو للعجب؟.

فساد الحكاية منطقيا: فما دامت الأيام واحدة من حيث زمانها، فما ينطبق على أحدها ينطبقعلى مجموعها. بذلك يكون البيروني قد توصل إلى معرفة جديدة من أخرى سابقة. وهو مايمثل صميم الاستدلال وجوهره.

من جهة أخرى ونظرا لكون الاستلال هو دراسة الأسباب، نجد البيروني على هذه الصفة فنراه متسائلا عن العوائق التي تحول دون الوقوف على حقيقة

الأخبار والأنباء الماضية فيقول: "وأبتدئ فأقول أن أقرب الأسباب المؤدية إلى ما سئلت عنه هو معرفة أخبار الأمم السالفة وأنباء القرون الماضية لأن أكثرها أحوال عنهم ورسوم باقية من رسومهم ونواميسهم ولا سبيل إلى التوسل إلى ذلك من جهة الاستدلال بالمعقولات والقياس" [25]. ذلك أن الحوادث التاريخية ليست قضايا فلسفية كمعرفة "السنين والشهور والأيام الماضية وكميتها، فلا مساغ للعقول بالقياس إلى إدراكه بوجه من الوجوه" [26]، ومن ثم لابد من العودة "لأهل الكتب والملل وأصحاب الآراء والنحل المستعملين لذلك وتصيير ما هم فيه أسا يبنى عليه بعده ثم قياس أقاويلهم وآرائهم في إثبات ذلك بعضها ببعض" [27].
والقياس هنا يشير إلى جمع الأقاويل والآراء السابقة ثم مقارنتها بما هو حاضر، أي الوقوف على الغائب من خلال معرفة الشاهد. وليس القياس الأرسطي رغم تَضَلُّع البيروني فيه.

كل ذلك يكون "بعد تنزيه النفس عن العوارض المردية لأكثر الخلق والأسباب المعمية لصاحبها عن الحق.. فإن الذي ذكرته أولى سبيل يسلك بأن يؤدى إلى حاق المقصود وأقوى معين على إزالة ما يشوبه من شوائب الشبه والشكوك وبغير ذلك لا يتأتى لنا نيل المطلوب ولو بعد العناء الشديد والجهد الجهيد" [28].

لكن البيروني حين يدعو إلى العودة إلى المصادر وما يُحكى في الكتب، فإنه يركز بالدرجة الأولى على ضرورة التفات المؤرخ إلى الضبط والتحري، واستعمال العقل والنظر والرجوع إلى المصادر.

المصادر سبيل الحقيقة التاريخية:

يعتقد البيروني أن أخبار الأمم السالفة وأنباء القرون الماضية "مختلط بتزويرات وأساطير لبعد العهد به وامتداد الزمان بيننا وبينه، وعجز المُعتني به عن حفظه وضبطه وقد قال تعالى: (ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله) [29]، فالأَوْلى أن لا نقبل من قولهم في مثله إلا ما يَشْهَد به كتاب معتمد على صحته أو خبر مشفوع به بشرائط الثقة في الظن الأغلب" [30].بهذا يكون التاريخ حسب البيروني ليس سردا

للأخبار إنما هو تحر للأصول والوقوف على الأسباب التي بها ومن خلالها يتم التمييز بين الحق والباطل.

وعليه لابد من توخي الحذر فنقوم "بجمع المعلومات والبحث عنها في الوثائق من كتب ورسائل وآراء أصحاب المال وأقاويلهم، وهي عملية أولية هامة، ثم يقارن الأخبار بعضها ببعض ويقيس الأقوال والآراء لإثبات الخبر أو تفنيده، وأخيرا يميز الخبر الممكن من الخبر المستحيل الممتنع تميزا عقليا وبالقياس مع الأخبار الممكنة عصر ذاك"[31].

وبهذا يكون البيروني قد حدد الآليات التي تؤدي إلى نيل المطلوب، "فبغير ذلك لا يتأتّى نيل المطلوب ولو بعد العناء الشديد والجهد الجهيد"[32].

مما سبق نكون قد لاحظنا أن الروح الوثائقية المبنية على الاستدلال التي اعتمدها البيروني هي التي

تكمن وراء نقده للخبر والمخبرين. لكن هل يعني ذلك أن فلسفة التاريخ عنده تستندعلى العقل الاستنباطي فقط؟ .

البيروني والتجربة المعيشية:

إنّ الروح السابقة "لم تكن هي الوحيدة، بل أيضا طريقة التعامل العلمي مع المعرفة بصفة عامّةالتي تفرض المشاهدة والعَيان والتجربة" [33]. وهي طريقة الباحث العلمي الحق. فحقائق التاريخ تشتق من الشواهد، و"من المنحى الحسي وليس المنحى الإشراقي الذي كان سائدا عند أهل التصوف في عصره، والذين كانوا يسلكون إلى المعرفة طريق الرياضة والمجاهدة، ويذهبون إلى أن المعرفة تستفاد ولا تكتسب لا بفعل من العقل، بل برياضة النفس بالزهد عن متاع الحياة والانصراف عن شواغل الحس والانقطاع إلى التأمل الباطني، حتى يصل طالب المعرفة إلى حال يذهل فيها عن الوجود الخارجي و يغيب فيها عن نفسه، فتشرق عليه المعرفة بفيض إلهي" [34]. هنا نكتشف أن البيروني استحدث آلية ثانية في مجال المنهج، ذلك حسبه أنّ ما يحصله المرء بالمشاهدة وما يلمسه بنفسه أكثر أهمية مما يستند إلى النقل والمطالعة عيانا. ف" ليس الخبر كالعيان، لأن العيان هو إدراك عين الناظر عين المنظور في زمان وجوده وفي مكان حصوله، ولولا لواحق آفات بالخبر لكانت فضيلته تبين على العيان والناظر لقصورهما

على الوجود الذي لا يتعدى أنات الزمان وتناول الخبر إياها وما قبلها من ماضي الأزمنة وبعدها من مقتبلها حتى يعم الخبر لذلك الموجود والمعدوم معاً" [35]، ولكن ما الذي يجعل المشاهدة والعيان أهم من السماع (الخبر)؟

قبل الإجابة لابد من توضيح القصد من الملاحظة، إنها الملاحظة العلمية التي تتجاوز مجرد المشاهدة، بل هي تركيز الانتباه لغرض البحث، وبَصِيرة ذات تمييز، وإدراك عقلي لأوجه الشبه والاختلاف، وحدة الذهن وقدرته على التمييز والفهم العميق.

على كل وباختصار تضعنا أمام الحدث التاريخي بكلّ تفاصيله الدقيقة، الأمر الذي يجعلها "ضرورية بل أساسية لكل تاريخ اجتماعي حضاري" [36]، فهي بهذا المعنى-التجربة المعيشية-حيوية لفهم نمط عيش الأفراد والمجموعات في الحضارات المدروسة أو في القبائل والمجتمعات، كان البيروني كالعالم الأنتروبولوجي قبل الاعتماد على الخبر والرواية والمصادر المكتوبة، كان يقدم صورة دقيقة وموضوعية للحضارة الهندية التي شاهدها وتفاعل معها ونقدها وحفظ لغتها" [37]. ولكن ماالذي جعل البيروني لا يحفظ لغة الهنود فقط، إنما لغات أخرى؟ هنا لابد من وقفة عند هذه المسألة.

اللغة أيضا آلية منهجية:

لم تكن اللغة عند البيروني، كباحث حاذق متميز مُتْقِن للغات عديدة-و"إننا لنجد فيه عالما مفتخرامن علماء اللغة" [38]-، مجرد أداة للتواصل كما هو معروف، بل نراه يهتم بها اهتماما خاصا حرصا منه على سلامة منهجه العلمي وكذا مساهمتها في الوقوف على الحقيقة العلمية، وذلك من خلال مساعدتها على الإلمام وفهم ما تحتويه المصادر الأصلية خاصة المكتوبة وكذا الأقوال المنطوقة. فها هو مثلا يتحدث عن تاريخ الطب عند اليونان فيذكر كبارهم من أمثال(غورس) و(أبوقراط) و(جالينوس) حتى نجده يمتنع عن المضي في الحديث عن ذكر الروايات الضعيفة التي بين يديه عن تلاميذهم حيث يقول: "ولنضع في هذا الجدول ما في مقالة اسحق من غير أن نذكر تلامذتهم فلا فائدة فيه إذ لم ننقله عن خط سرياني أو يوناني يعطينا أمانا من التصحيف" [39].

نعود ونقول: إنمكوث البيروني في الهند جعله يدرس المجتمع الهندي وتاريخه ويجادل علماءهوأدباءه ويقف على أساليب حياته وحكمه، وعلى مناهجه

في الفلسفة والتفكير والعلم. فمما يحكيه مثلا عن الهنود أنهم "لا يظنون أن في الأرض غير بلدانهم وفي الناس غير سكانها وأن للخلق غيرهم علما حتى أنهم إن حدثوا بعلم أو عالم في خرسان وفارس استجهلوا المخبر ولم يصدقوه للآفة المذكورة، ولو أنهم سافروا وخالطوا غيرهم لرجعوا عن رأيهم" [40]،فهو يؤكد هنا على دور المشاهدة بحيث تنفتح من خلالها أفق المعرفة، ذلك أن الذي لم يشاهد ولم يعايش سيظل منغلقا، مما يؤدي إلى الابتعاد الكلي عن التفسير العلمي لا محال. غير "أن البيروني لا يكتفي باستعمال العقل واستنباط القوانين كما أشرنا سابقا أو يقتصر على تسجيل المشاهدات، بل يحاول دائما التحقيق منها بالتجربة" [41].ولكن "التجربة" في حد ذاتها لا تعني أن البيروني وصل بالعلم إلى أساسه التجريبي. فهناك فرق بين "التجربة والتجريبية، فالتجريبية منهجية متطورة تطلب ثورة إبستمولوجية هائلة وتطورا تقنيا في الكم والكيف" [42].

وإذن فلا يقصد بالتجربة حمل الحادثة إلى المخبر وصنعها باستخدام الآلات كما هو الشأن بالنسبةللظواهر الطبيعية، إنما هي التجربة الحسية التي تقر بأن "جميع معارفنا مستقاة منالتجربة" [43]، "فالإحساس والتفكير هما المصدران اللذان ينبع كل منهما كل ما لدينا منمعارف، ثم هما شعبتان أو فرعان مختلفان ينشآن عن أصل واحد هو التجربة" [44].يقول البيروني: "والطريق الذي مهدته ليس بقريب المأخذ بل كأنه من بعده وصعوبته يشبه أن يكون غير موصول إليه لكثرة الأباطيل التي تدخل جل الأخبار والأحاديث وليست كلها داخلة حد الاقتناع، فتميز وتهذب. لكن ما كان منها في حد الإمكان وجرى مجرى الخبر، ألحق إذا لم يشهد ببطلانه شواهد أخرى، بل قد يشاهد وشوهد من الأحوال الطبيعية ما لو حكى مثلها من زمان بعيد عهدنا به لثبتنا الحكم على امتناعها"[45]. يضيف قائلا: ".. ثم المشاهدة فقط والقياس عليها لا يخرج طول الأعمار وعظم الأشخاص وأكثر ما أخبر عنه عن الإمكان فإن ما يشبه هذه الأشياء يجيء في الأزمنة على ضروب كثيرة فمنها مالها أوقات معلومة تدور فيها متعاقبة وتغاير عند كونها ممكنة فإذا لم يشاهدها المشاهد أوقات كونها استبعدها وربما يسارع إلى نفيها" [46]. بذلك يكون البيروني قد مزج بين التجربة والاستنباط.

البيروني والتجريب:

من ناحية أخرى لا يعني أن البيروني لم يمارس التجريب كما هو متعارف عليه فيشتى فروععلوم الطبيعية والحياة، كيف لا وقد وضعه المستشرق الأمريكي(أريو بوب) ضمن قائمة أكابر العلماء "من المستحيل أن يكتمل أي بحث للرياضيات أوالفلك أو الجغرافيا أوعلم الإنسان أو النبات أوالصيدلة أوالمعادن دون الإقرار بمساهمته العظيمة في كل علم من تلك العلوم" [47]. ليس هذا فقط ولكن كان ذلك من المباحث التي عشقها. "قد كنت أزمعت تولي الأرصاد في سنتي أربع وخمس وثمانين وثلاثمائة للهجرة، وهيأت لها دائرة قطرها خمس عشرة ذراعا مع سائر ما تبعه، ولم أتمكن من الرصد.." [48].

على كل كان(البيروني) قد اشتكى من أذى أصاب عينيه فقال: "إن بصري فسد بمثل هذاالعمل من رصد الكسوفات الشمسية في حداثتي" [49]. وهذا دليل كذلك على الروح التجريبية لدى البيروني، غير أنه لا يتوقف عند وصف الحوادث ومشاهدتها، بل ينتقل بها إلى مستوى التعليل والتفسير "ذلك أن تاريخا بلا تعليل مجرد تقويم، فدراسة التاريخ هي دراسة أسباب، وإذا كان جمع المادة التاريخية يشكل الخطوة الأولى، فان التعليل يشكل الخطوة الحاسمة في كتابة التاريخ"[50].إنه الأمر الذي يذكرنا بما ذهب إليه(مونتسكيو 1689م-1755م)في كتابه(روح القوانين) حيثيعتقد أنَّ من السخف "رد وقائع التاريخ إلى الصدفة العمياء. فسلوك البشر تحكمهمبادئ مشتقةمن طبيعة الأشياء" [51].

هكذا ينتقل البيروني من مستوى الوصف للحوادث ومشاهدتها إلى مستوى التعليل والتفسير والفهم العلمي لها وذلك من خلال النظر العقلي بالعودة إلى المصادر الموثوقة. "ذلك أن المخلفات الأثرية والوثائق هي المواد الخام التي يمكن أن يستخلص منها التاريخ ثم يُكتب" [52]. يقول(أي البيروني): "أفلا ينظرون في كتب الطب ولا يسمعون من أقاويل من يحكي عنهم الفاضل (جالينوس130م/200م) في كتبه من المتقدمين" [53]. الكلام هنا مُوجَّه لفرقة من النصارى، لكن هو في حقيقته موجه لكل الذين لا يحللون ولا يتأملون ويكتفون بالنظرة السطحية الساذجة للعلم.

والحاصلأن"الطريقةالعلمية لدى(البيروني)تعتمد على المشاهدات والتجارب،والاستنتاجاتالمنطقية، وجمع المعلومات، ودراسة الأقوال الشفهية والتعليقات المدونة وكذلك التفهم النقدي لهذه المعلومات والمصادرومقارنة أحدها مع الآخر لغرض الوصول إلى الحقيقة"[54].

الخاتمة:

في ختام هذا العرض نقول بصفة مقتضبة: لم يخطئ الأستاذ (فتحي التريكي)حين اعتبر البيروني مُؤسِّسًا لفكر تاريخي عربي إسلامي، ولم يجانب الحقيقة الدكتور(محمود إسماعيل) حين وضعه في خانة المؤرخين الذين طفروا بالفكر التاريخي طفرة كبرى، لا من حيث النظرة إلى الموضوع فقط، بل وأيضا من حيث المنهج الذي وصل حد التنظير.

الإحالات:

*هو محمد بن أحمد البيروني، عربي من أصل فارسي(362-440هـ)حكيم، رياضي، فلكي، طبيب، أديب، لغوي، ومؤرخ، من أهم آثاره في التاريخ كتابي (تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة) و(الآثار الباقية عن القرون الخالية).

[1]- البيروني، الآثار الباقية، دار صادر بيروت، ص13.

[2]- عبد الرحمن بدوي، مناهج البحث العلمي، وكالة المطبوعات الكويت، ط3، 1977، ص03.

[3]- نجيب بلدي، دروس في تاريخ الفلسفة، دار توبقال للنشر، ط4، 2004، ص78.

[4]- البيروني، الآثار الباقية، صص4-5.

[5]- المصدر نفسه، ص 04.

[6]- اليونسكو، العالم أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني، الذكرى الألفية لمولده، مطبعة جامعة دمشق، 1974، ص107.

* يعتبر من أهم مؤلفات البيروني وضعه (عام 421هـ)، وأهداه إلى السلطان (مسعود الغزنوي) الذي تولى الحكم بعد موت أبيه، وسماه باسمه. فهو كتاب يمكن اعتباره أعظم موسوعة في علوم الفلك والهيئة والنجوم.

[7]- أبو الريحان البيروني، القانون المسعودي، ج1، دار الكتب العلمية بيروت، ط1، 2002، ص37.

[8]- البيروني، تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة، عالم الكتب، ط2، 1983، ص21.

[9]-صالح مهدي العزاوي، البيروني حياته وفكره، المورد ، مجلة تراثية فصلية، وزارة الثقافة والفنون العراق، شتاء 1977، عدد4، دارالحرية للطباعة بغداد، رجع سابق، ص163.

[10]- البيروني، الآثار الباقية، مصدر سابق، ص04.

[11]- البيروني، تحقيق ما للهند، مصدر سابق، ص57.

[12]- توفيق الطويل، أسس الفلسفة، مرجع سابق، ص315.

[13]- المرجع نفسه، صص 314- 315.

[14]- ديكارت، مقالة الطريقة، تر/جميل صليبا، تقديم عمر مهيبل، موفم للنشر، 1991، ص29.

[15]- أبو الريحان البيروني، القانون المسعودي، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر أباد، الهند، 1954، ص05.

[16]- توفيق الطويل، أسس الفلسفة، دار النهضة العربية، القاهرة، ط6، 1976، ص 314.

[17]- البيروني، تحديد نهايات الأماكن، تحقيـــــق /ب، بولوجاكوف، مراجعة إمام إبراهيم أحمد، ص27.

[18]- أبو نصر الفارابي، إحصاء العلوم، تحقيق/علي بوملحم، دار ومكتبة الهلال بيروت، ط1، 1996، ص67.
[19]- محمد فتحي الشنيطي، أسس المنطق والمنهج العلمي، دار النهضة العربية للطباعة والنشر بيروت،1970، ص16.
- المرجع نفسه، ص24.[20]
- محمد فتحي الشنيطي، أسس المنطق والمنهج العلمي، مرجع سابق، ص6.[21]
- المرجع نفسه، ص21.[22]
[23]- الآثار الباقية، مصدر سابق، 264.
[24]- المصدر نفسه، ص 264.
- المصدر نفسه، ص4.[25]
- البيروني، تحديد نهايات الأماكن، مصدر سابق، ص40.[26]
- البيروني، الآثار الباقية، مصدر سابق، ص4.[27]
- البيروني، الآثار الباقية، مصدر سابق، ص4.[28]
[29]- سورة إبراهيم، الآية:09.
[30]- البيروني، الآثار الباقية، مصدر سابق، ص14.
[31]- فتحي التريكي، الفكر التاريخي العربي و المنهج العلمي البيروني، الثقافة، مجلة تصدرها وزارة الثقافة والسياحة بالجزائر، عدد98، مارس- أبريل 1987، ص182.
[32]- البيروني ، الآثار الباقية، مصدر سابق، ص04.
[33]- فتحي التريكي، الفكر التاريخي العربي والمنهج العلمي البيروني، مجلة الثقافة، مرجع سابق، ص183.
[34]- البيروني، القانون المسعودي، ج1، دار الكتب العلمية بيروت، ط1 ، 2002، ص22.
[35]- البيروني ، تحقيق ما للهند ، مصدر سابق، ص13.
[36]- فتحي التريكي، الفكر التاريخي العربي و المنهج العلمي البيروني، مرجع سابق، ص183.
[37]- المرجع نفسه، ص183.
[38]- صالح مهدي العزاوي، البيروني حياته وفكره، مجلة المورد، مجلة تراثية فصلية، مرجع سابق، ص163.
[39]- أحمد محمود الساداتي، حول كتاب تحقيق ما للهند، العالم أبو الريحان البيروني، الذكرى الألفية لمولده، مطبعة جامعة دمشق، 1984، ص195.
[40]- البيروني ، تحقيق ما للهند، مصدر سابق، ص20.
[41]- فتحي التريكي، الفكر التاريخي العربي و المنهج العلمي البيروني، مجلة الثقافة، مرجع سابق، ص183.
[42]- المرجع نفسه، ص185.
توفيق الطويل، أسس الفلسفة، مرجع سابق، ص349.-[43]
[44]- محمد عبد الرحمان بيصار، تأملات في الفلسفة الحديثة والمعاصرة، منشورات المكتبة العصرية، بيروت ط 3، 1980، ص118.
-.[45]البيروني ، الآثار الباقية، مصدر سابق، ص 05
[46]- المصدر نفسه ، ص ص 79-80.
[47]- محمد علي الشيخ حسين، البيروني ومآثره في علم النبات، مجلة الثقافة العربية، المؤسسة العامة للصحافة ليبيا، العدد 8، السنة السادسة أوت، 1979، ص138.
- البيروني، تحديد نهايات الأماكن، مصدر سابق، صص109-110. [48]
- المصدر نفسه، ص277.[49]
أحمد محمود صبحي، في فلسفة التاريخ، مؤسسة الثقافة الجامعية، الإسكندرية، ط3، 1989، ص 19.-[50]
- المرجع نفسه، ص 20.[51]
[52]- لويس جوتشيلك، كيف نفهم التاريخ، مدخل إلى تطبيق المنهج التاريخي، ترجمة عايدة سليمان عارف، دار الكتاب العربي

بيروت، 1966، ص58.

[53]- البيروني، الآثار الباقية، مصدر سابق، ص297.

[54]- صالح مهدي العزاوي، البيروني حياته وفكره، مجلة المورد، مجلة تراثية فصلية، مرجع سابق ص164.